التغريض اللساني من خلال تفسير التحرير والتنوير

The Linguistic Matisation in Interpretation of el tahrir wa el tanwir

بوزيان حمزة*

قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب والفنون، جامعة وهران1 أحمد بن بلّة (الجزائر)

hamzachoupot@gmail.com

تاريخ الوصول2020/11/14 تاريخ القبول 2021/01/03 تاريخ النشر2021/09/27

ملخص:

ترامت جهود اللّسانيّين النصّيّين إلى تحديد العلاقات الدّلالية الموجودة بين مختلف وحدات النّص؛ إذ إنّ هذا الأمر يسهّل على المتلقّي سبل الوصول إلى المعنى بسلاسة ودقّة؛ ولذلك نادى كثير من الباحثين بضرورة الاهتمام بالمرتكزات الأساس التي تسهم في تعزيز منحى التّرابط النصّي وتُفضي إلى انسجامه، ومن ضمن هذه المرتكزات نذكر آلية التّغريض.

ولَمّا كان الخطاب القرآني نصّا يتميّز بالتّرابط والتّماسك والانسجام التّام، فقد التفت مفسّروه إلى أهمّ تلك الآليات التي تسعى إلى تحقيق هذا الغرض فيه، ولكنّنا بالمقابل نجد أنّهم لم يكونوا متفرّدين في هذا الشّأن؛ فقد كانت هذه الظّواهر اللّسانية محلّ تأمّل ودراسة وتحليل من طرف باحثي اللّسانيات النصّية العالمية كذلك، والحقيقة أنّ المفسّرين لم يكونوا وحدهم من اهتمّ بتلك الآليات التي تُسهم في انسجام نص القرآن العظيم، بل إنّنا نُلفي كثيرا من العرب القدامى هم أيضا قد اهتمّوا بهذا المجال، ومنهم نحويون وبلاغيون وأصوليون.

ونظرا لكثرة هؤلاء على اختلاف مشاربهم وتشعّب مناحي الدّراسة لديهم فإنّنا سنقتصر في هذا البحث على دراسة جهود أحد مفسّري القرآن الكريم وهو الطّاهر بن عاشور في ما يتعلّق بآلية التّغريض، ولعلّ في ما أتى به في تفسيره "التّحرير والتّنوير" غُنية لنا عن دراسة بقيّة البحوث ومتابعتها؛ كما سيحاول هذا البحث الكشف عن مصطلح التغريض هل هو من المفاهيم اللّسانية النصّية الحديثة الغربية المنشأ أم أنّ له جذوراً وأصولاً أو حتى تأسيسات رصينة في الدراسات العربية القديمة؟

الكلمات المفتاحية: التّغريض، اللّسانيات النصية، النص، الطّاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير.

Abstract:

Researchers is the field of linguistics aim at showing the relations between the different structures of the text.

This fact facilitates the process of understanding the meanings.

The koran speech is a specific text characterized by the cohesion. A lot of scholars, researchers and even scientists in the field of linguistics give importance to its mechanics.

The ancient Arabs were interested in this field especially the grammar and syntax researchers.

*المؤلف المرسل

In this project we insist on "Mr Tahar Ben Achor" with his work "El Tanwir w Tahrir", we will also try to deal with the word "purpose", if it is one of the linguistic modern side or if it has a relation with the ancient Arab studies and researches .

Keywords: the Matisation; Linguistique textuelle; the text; Tahar Ben Achor; El Tanwir w Tahrir.

1. مقدمة:

رامت جهود اللّسانيّين النصّيّين تحديدَ العلاقات الدّلالية الموجودة بين مختلف وحدات النّص لأنّ سعياً مثل هذا قد يسهّل على المتلقّي سبل الوصول إلى المعنى بسلاسة ودقّة معا؛ ولذلك نادى كثير من الباحثين بضرورة الاهتمام بالعناصر التي تُفضي إلى الانسجام، وقد عدّ هذا الأخير حتمية من أجل تحقيق تكامل النصّ وترابطه وقد تعدّدت آراء الباحثين حول أهمّ الآليات التي يعتمدها المتلقّي ليتحقّق له الانسجام المذكور بين مكوّنات النص، وهذه الآليات كثيرة من ضمنها السّياق والتّغريض والتّأويل.

ولَمّا كان الخطاب القرآني نصّا يتميّز بالتّرابط والتّماسك والانسجام التّام، فقد التفت مفسّروه إلى أهمّ تلك الآليات التي تسعى إلى تحقيق هذا الغرض فيه، ولكنّنا بالمقابل نجد أنّهم لم يكونوا متفرّدين في هذا الشّأن فقد كانت هذه الظّواهر اللّسانية محلّ تأمّل ودراسة وتحليل من طرف باحثي اللّسانيات النصّية العالمية كذلك والحقيقة أنّ المفسّرين لم يكونوا وحدهم من اهتمّ بتلك الآليات التي تُسهم في انسجام نص القرآن العظيم، بل إنّنا نُلفي كثيرا من العرب القدامى هم أيضا قد اهتمّوا بهذا المجال ومنهم نحويون وبلاغيون وأصوليون.

ونظرا لكثرة هؤلاء على اختلاف مشاربهم وتشعّب مناحي الدّراسة لديهم فإنّنا سنقتصر في هذا البحث على دراسة جهود أحد مفسّري القرآن الكريم وهو الطّاهر بن عاشور في ما يتعلّق بآلية التّغريض ولعلّ في ما أتى به في تفسيره "التّحرير والتّنوير" غُنية لنا عن دراسة بقيّة البحوث ومتابعتها؛ كما سيحاول هذا البحث الكشف عن آلية التّغريض وإبرازها لديه من خلال تفسيره، ولا يعدم القارئ في ثنايا ذلك أن يجد بعض أوجه الاتّفاق والاختلاف بين ابن عاشور وغيره من المنظّرين والدّارسين لهذه الآلية، وهو أمر منتظر نظرا لطبيعة العلم القائمة على التّراكم والتّلاقح، ومن رؤية أخرى سنبتغي استيضاح مصطلح التّغريض هل هو من المفاهيم اللّسانية النصّية الحديثة الغربية المنشأ أم أنّ له جذوراً وأصولاً أو حتى تأسيسات رصينة في الدراسات العربية القديمة؟

2. تعريف التغريض (The Matisation): يعدّ التّغريض (The Matisation) من أهمّ المرتكزات النصّية التي تسهم في تعزيز منحى التّرابط النصّي، ولقد حظي باهتمام الباحثين لما له من دور في تحقيق الانسجام النصي، فما مفهومه عند الغربيين وكيف نظر إليه باحثوا تراثنا الذين اهتمّوا بالقرآن الكريم.

1.2. ماهية التّغريض عند الغربيين: لو تتبّعنا أهمّ الباحثين الغربيين الذين اهتمّوا به وخصّصوا له جزءا كبيرا من أعمالهم لوجدنا جيليان براون وجورش يول (G.Brown And G.Youle)، ولقد ورد تعريفهما له بقولهما:

-"What the speaker or writ erupts first will influence the interpretation of everything that follows. Thus a title will influence the interpretation of the text which follows it. The first sentence of the first paragraph will constrain the interpretation not only of the paragraph, but also of the rest text. That is, we assume that every sentence forms part of a developing, cumulative instruction which tells us how to construct a coherent representation " [1].

ويُقصَدُ بالتّغريض بهذا المفهوم الذي قدّماه هو ما يضعه المتحدّث أو الكاتب في بداية النص من كلام يساعد على فهم وتفسير كلّ ما يكتب في النص، ويكون ذلك إمّا في العنوان، وإمّا في الجملة الأولى من الفقرة الأولى التي تساهم في توضيح كلّ الفقرة أو النّص برمّته، ويمكننا القول بأنّ كلّ جملة في بداية الكلام تعدّ جزءا مهمّا للوقوف على المعنى العام للنص، كما تضفي جمالية عليه ممّا يُبدي لنا كيفية بناء تمثيل نصّي منسجم.

ولعلّنا نفهم من كلامهما أنّ التّغريض عندهما يوضّح للقارئ ما سيأتي في النص من أفكار ومعلومات، وغالبا ما يظهر التغريض بشكل جليّ في عنوان النص ولكن ذلك ليس ضرورة حتمية؛ إذْ يمكن أن يكون في بداية النص أيضا، كما يُمكن أن يكون في غير هذين الموضعين وإنْ بدرجةٍ أقل، وأبرز مثال على ذلك ما نراه في المقالات الصحفية أين نجد العنوان طويلا يكاد يكون ملخّصا لما ورد في المقال، ثمّ يتبع غالبا بفقرة قصيـرة تعتبر أكثر تفصيلا من العنوان لكنّها لا تحتوي كلّ تفاصيل الموضوع، ثمّ نجد أخيرا نص المقال بكلّ تفاصيله، وهنا نلمس تدرّجا في مستويات التّغريض واستدراجا ذكيا للقارئ.

وقد ذكر محمد خطّابي تعريفا له نقلا عن الغربيين بأنّه: " نقطة بداية قول ما "[2]، ومن البديهي أنّ مَطْلَع وافتتاحية أيّ عمل تكمن في العنوان، فهو إكسير الكتابات أو البوابة التي يَلِج منها الكاتب، والتي لا غِنى للباحث عنها.

ويبرز محمد خطابي المواضع التي نقف فيها على التّغريض؛ فيرى أنّه قد يكون في بداية: " كلّ قول كلّ جملة كلّ فقرة، كلّ حلقة، وكلّ خطاب منظّمٌ حول عنصر خاصّ يتّخذ كنقطة بداية"[3].

وهنا يفهم أنّ التّغريض قد يكون مجزّءا عبر أجزاء النص خاصّة إذا كان هذا الأخير طويلا يتعذّر على الكاتب تغريضه دفعة واحدة كنص رواية تشمل عدّة أجزاء أو نص مسرحية تشمل عدّة فصول.

والذي نستطيع أن نستنتجه من هذا التعريف هو أنّه لكلّ نص بؤرة مركزية تدور حولها جميع أجزاء النص؛ وهو يكمن في حركة ذهاب وإياب بين العنوان والمتن.

وبالتّالي يتّضح لنا أنّ العنوان وبداية النّصوص هما اللّذان يفضيان إلى فهم المضمون والمعنى من وراء الكتابة.

هذا حظُّ **التّغريض** عند الغربيين فما حال تراثنا العربي معه اصطلاحا ومفهوما؟

2.2 مصطلح التّغريض عند العرب: إنّ المتتبّع لتراثنا العربي حول مصطلح التّغريض سيجد أنّه ورد بالمفهوم نفسه الذي نجده عند الغربيين ، لكن ليس بالمصطلح ذاته بل بمصطلح آخر مخالف له، وقد نجد في تراثنا العربي إشارات كثيرة له منها ما ذكره **الجاحظ (ت 255 هـ)** في قوله:" لا خير في كلام لا يدلّ أوّله على معناك، ولا يشير إلى مغزاك وإلى العمود الذي إليه قصدت، والغرض الذي إليه نزعت"[4]. وهي إشارة صريحة للتغريض بالمفهوم الذي رأيناه لدى الغربيين سابقاً.

وقريباً من هذا المعنى ما أورده **أبو هلال العسكري (ت. 395 هـ)** لدى مخاطبته الكُتّاب ونصحه لهم بتجويد كتاباتهم وتحرّي الدّقّة فيها، يقول في ذلك: " قال بعض الكتّاب: أحسنوا معاشر الكتاب الابتداءات فإنّهنّ دلائل البيان."[5] وهو مفهوم كما نلاحظ يكاد يكون مطابقاً لما ورد عند الجاحظ من حديث عن المفهوم نفسه.

ثمّ إنّ معنى التّغريض معتمد في النصوص الأدبية على اختلافها، فلا يخفى – معنى التغريض - على القارئ مهما كان مستواه في فهم النصوص وفي تحليلها سواء أكان هذا الفهم عميقا أم سطحيا، فالطفل في المدرسة الابتدائية حين يتعلّم كتابة فقرة أو يخطّ تعبيرا كتابيا يستهلّ كتابته دائما بذكر العنصر الذي طُلب منه كأن تطلب منه كتابة فقرة عن الربيع فأوّل ما سيخطّه هو الربيع أو في فصل الربيع دون أن يكون ملمّا بمفهوم التّغريض أو إن شئت قل دون دراية مسبقة بعلاقة العنوان بمحتوى ما سيُكتب، غير أنّه يمارسه بالفطرة الأدبية السليمة التي جبل عليها.

كما أنّ الطفل - وهو أهمّ مثال نستند عليه لإثبات أنّ التّغريض ممارسة قبل أن يكون مصطلحا لسانيا أو تعريفا أكاديميا- حين يقرأ عنوان قصّة يحكم مباشرة على المحتوى و يشكّل ذلك فارقا كبيرا في تشجيعه على القراءة أو تنفيره منها ... فالولد الذكر مثلا سيختار علي بابا واللّصوص الأربعون لدى اختيار كتاب المطالعة، بفضل تأثير العنوان والإيحاء الذي يصل مباشرة إلى المتلقّي دون عناء الشرح والإقناع، في حين أنّ الأنثى ستختار الجميلة النائمة مثلا للسبب نفسه؛ فالعنوان قد شدّها من ناحية وخلق لديها فضولا دافعا لقراءة القصّة من ناحية أخرى .

هذا و تتعدد الأمثلة في هذا السياق ولكنّها تصبّ في بحر واحد، وهو أنّ التّغريض ممارسة قبل أن يكون مصطلحا فمن منا لا يفتح الصحيفة فيقبل على مقال و يعرض عن آخر حتّى قبل أن يطّلع على المحتوى، وهذا كلّه تحت تأثير العنوان فقط ... ، وهذا هو المراد بمعنى التّغريض في حقيقة الأمر، فهو مؤشّر يساعد القارئ في انتقاء ما يرغب في قراءته، وقد يرتبط التّغريض أيضاً بتحديد الغرض من هذا النص الأدبي المعروض فتقبل عليه إن كان يوافق ما تحتاج إليه وتعرض عنه إن كان غير ذلك

ومثل هذا كمثل الدواء ، فكل دواء صنع لغرض محدّد يبرز في علبة الدواء مباشرة تحت اسم معيّن وهذا يساعد في اختصار عناء البحث والتقصّي عما يفيد وما لا يفيد وفق الغرض من القراءة في حد ذاتها وذلك ليس من الوجاهة ببعيد.

ولعلّ أهمّ ما يمكن أن نستقيه من كلام العرب والذي يوضّح أنّ هذا المصطلح قد ورد بمفهومه في تراثنا، هو ما ذكره مفسّرو القرآن الكريم لمعنى التّغريض تحت مسمّى العلاقة بين اسم السورة ومحتواها في النص القرآني الكريم، ونكتفي في هذا البحث بأمثلة منتخبة من تفسير الطاهر بن عاشور لآي القرآن الكريم.

3. آلية التّغريض من خلال تفسير الطّاهر بن عاشور " التّحرير والتّنوير ":

لم يكن الطاهر بن عاشور بمنأى عن معنى آلية التّغريض وهو يدرس نص القرآن الكريم باعتباره نصا كاملا منزّها عن كلّ نقص و عيب، إذ يجد نفسه مجبرا على إيجاد وجه التناسب والعلاقة بين عنوان السورة و محتواها. ولعلّ هذا الأمر لا يخفى على أحد من دارسي هذا النّص العظيم، فكلّ من يتمعّن في سورة الكهف مثلا فإنّه سيجدها تضمّ قصّة أصحاب الكهف، وسورة مريم تضمّ قصّة السيدة مريم وسورة نوح تضمّ قصّة سيدنا نوح وغيرها، فكلّ من يقرأ القرآن الكريم يجد هذه العلاقة بكلّ سهولة ويسر.

وإذا عدنا إلى تفسير " **التّحرير والتّنوير** " ثمّ بحثنا في أيّ سورة من السّور التي عالجها صاحب هذا التّفسير فإنّنا سنقف حتما على ذلك التأكيد على الربط الواقع بين مفهومها واسمها، فقد نبّه **ابن عاشور** إلى ذلك الالتحام الواقع بين التّسمية والمضمون في جميع سور القرآن الكريم.

ولكن ههنا أمر نُنبّه إليه لأهمّيته، وهو أنّ ما يقابل مصطلح "**التّغريض**" عند الغربيين هو مصطلح " **التّناسب بين اسم السّورة ومحتواها** " عند **ابن عاشور** وعند غيره من المفسّرين؛ وإن كان المفهوم يبقى واحدا عند الجميع وهو مدى الملاءمة الحاصلة بين اسم السّورة (أو العنوان في النّصوص العادية) ومحتواها، فالمسألة إذن تبقى مسألة مصطلح لا مسألة مفاهيم، ولكن هل يمكن أن نقول إنّ **ابن عاشور** في هذه المسألة (مسألة التغريض) قد تأثّر بما دُرِس من مسائل اللّسانيات النصّية عند الغربيين؟

إنّ الإجابة عن هذا السّؤال قد تكون بسيطة، وهي أنّ **ابن عاشور** في زمن تأليفه للتّحرير والتّنوير لم تكن هذه الآلية (التّغريض) قد تبلورت في مهدها في اللّسانيات النصّية العالمية بشكل يمكن أن يُستفاد منها في التّحليل اللّغوي بَلْهَ في تفسير القرآن الكريم، ثمّ إنّ **ابن عاشور** نفسه قد وجد في التراث العربي اللّغوي والدّيني ما يُغنيه عن البحث فيما سواهما، وليس هذا تقصيرا منه ولكنّ الأمر عائد كما قلنا إلى أنّ آلية التّغريض في تلك الفترة لَمّا تظهرْ بعد؛ فكيف يمكن أن نقول إنّه قد استفاد من الغربيين في هذا المجال من اللّسانيات النصّية العالمية؟ هذا أمرٌ.

وأمّا الأمر الثّاني فإنّا وجدنا كثيرا من المفسّرين – القدماء والمحدثين – ممّن أخذوا على عاتقهم تفسير القرآن الكريم ودراسته يتردّدون في ذلك في أوّل الأمر؛ لأنّ الأمر يتعلّق بكتاب الله تعالى، وليس من السّهل الخوض فيه خصوصا لدى محاولة دراسته بالاستعانة بنظريات التّحليل اللّغوي الحديثة والأمثلة على هذا التردّد كثيرة*[6].

وقد يكون هذا الأمر الثّاني هو ما أدّى بصاحب " التّحرير والتّنوير " إلى الاكتفاء بما وجد في التراث العربي من آليات ظاهرته على وضع تفسيره.

وقد وقع اختيارنا في هذا الجانب من التّغريض (التّناسب بين اسم السّورة ومحتواها) على بعض السور وعلاقاتها المتينة بأسمائها، لأنّ ابن عاشور ذَكَرَ الميزة الأساسية من وصل تفسير السور بأسمائها، وفي ذلك يقول إنّ: " أسماء السُور قد جُعلت لها من عهد نزول القرآن بالوحي والمقصود من تسميتها تيسير المراجعة والمذاكرة، وقد استدلّ بحديث ابن عباس أنّ النبي عليه الصّلاة والسّلام كان يقول إذا نزلت الآية ضعوها في السورة التي يذكر فيها كذا "[7].

وممّا يجري على هذا النّسق مثلا سورة البقرة، فقد سُمّيت بذلك لذكر اللّه تبارك وتعالى قصّة البقرة مع بني إسرائيل فيها، والشّيء نفسه بالنّسبة لسورة الكهف، ومريم، وطه، والعديد من السور.

وينظر مفسّرنا إلى أنّه من فوائد التّسمية تمييز السّورة عن غيرها، وأصل أسماء السور أن تكون بالوصل كقولهم " السّورة التي يذكر فيها كذا "، ثمّ شاع فحذفوا الموصول وعوَّضُوا عنه الإضافة فقالوا "سورة ذكر البقرة " مثلا ، ثمّ حذفوا المضاف وأقاموا المضاف إليه مقامه فقالوا "سورة البقرة "، أو أنّهم لم يقدروا مضافا – وأضافوا السورة لما يذكر فيها لأدنى ملابسة " [8]. وهذا التّغريض فيه بيان لسبب تسمية السور القرآنية، والعلاقة القائمة بين التّسمية والمحتوى.

تجدر الإشارة في هذا المقام إلى أنّ هذه العلاقة قد تكون بارزة بسهولة في قصار السور عموما لقصر النص القرآني الكريم، ولكن طوال السور تضمّ عدّة نماذج فقد تتّضح العلاقة بين اسم السورة ومحتواها في مستهلّ السورة مثلما هو الحال في سورة يوسف، وقد يتأخّر إدراك هذه العلاقة قليلا مثلما هو الحال في سورة الحج أو لعلّ التأخر يكون أكبر فتصل إلى نهاية السورة مثلما هو الحال في سورة يونس مثلا، ولا ينبغي لذلك أن يكون إخلالا بمفهوم التّغريض بل إنّه يوضّح أنّ التّغريض المتمثّل في اسم السورة لابدّ أن يرتبط ارتباطا وثيقا بمحتوى النص القرآني الكريم، وليس على ابن عاشور أو غيره من دارسي النص القرآني الكريم غير التوصّل إلى ذلك.

وقد أكّد صاحب " التّحرير والتّنوير " أهمّية هذه الآلية لفهم مغزى السورة، وذلك لكونه نقطة بداية أيّ عمل، وينبغي لمحلّل القرآن أن يُعرّج عليه، ومن النماذج التي نستدلّ بها حيث تكون الصّلة وثيقة بين السورة وعنوانها نذكر سورة البقرة، فقد ذكر **ابن عاشور** أنّ سبب تسمية السورة بالبقرة هو: "ذِكر قصّة البقرة التي أمر الله بني إسرائيل بذبحها لتكون آية ووصف سوء فهمهم لذلك، وهي ممّا انفردت هذه السورة بذكره"[9].

فقصّة البقرة لم تذكر إلّا في هذه السورة، وهذا فيه تميّز عن باقي السور، بالإضافة إلى أنّ هذه القصّة فيها إشارة إلى خلق ذميم اتّصف به بنو إسرائيل؛ يتمثّل في العناد والتعنّت والمشاحنة للرّسل والأنبياء الذين بعثوا فيهم كما أنّ هذه السورة أغلب ما احتوت عليه هو سرد حياة بني إسرائيل من الجانب الديني خاصة.

وهذا ما هو مبيّن تحديدا في قوله تعالى: { **وَإِذ قَالَ مُوسَىٰ لِقَومِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأمُرُكُم أَن تَذبَحُواْ بَقَرَة... ثُمَّ قَسَت قُلُوبُكُم مِّن بَعدِ ذَٰلِكَ** } (سورة البقرة، الآية: **67 – 74**)، فقد تعرّضت هذه الآيات لقصّة من قصص بني إسرائيل تمثّلت في قتل نَفسٍ اختُلِفَ في قاتلها، فطلبوا من موسى أن يكشف لهم القاتل، فطلب منهم نبيّ الله موسى أن يذبحوا بقرة، وبعد ذبحها أن يضربوا الميّت بجزء منها حتّى يحيى بإذن الله وينبئهم بالقاتل ولكن سخروا بمقولته وَوَقَعَ بينهم الأخذ والردّ في هذه القضية، وقد فصّلها صاحب "التّحرير والتّنوير"[10].

هذا حظّ عنوان سورة البقرة وعلاقته بقصّة بني إسرائيل، لكن لا ينبغي أن نُنكر أنّ بعض المقاطع من هذه السورة ترتبط أيضا بقصة بني إسرائيل وإن لم يكن الوصل مباشرا، ومن المقاطع المنسجمة مع العنوان نجد قضايا بني إسرائيل مع أنبيائهم وبالأخصّ مع سيّدنا موسى عليه السلام الّتي استدلّ بها ابن عاشور.

ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى:{**وَإِذ نَجَّينَٰكُم مِّن ءَالِ فِرعَونَ يَسُومُونَكُم سُوءَ ٱلعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبنَاءَكُم وَيَستَحيُونَ نِسَاءَكُم وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاء مِّن رَّبِّكُم عَظِيم** } وقوله:{ **وَإِذ فَرَقنَا بِكُمُ ٱلبَحرَ فَأَنجَينَٰكُم ... وَإِذ وٰعَدنَا مُوسَىٰ أَربَعِينَ لَيلَة ثُمَّ ٱتَّخَذتُمُ ٱلعِجلَ مِن بَعدِهِۦ وَأَنتُم ظَٰلِمُونَ**} وقوله {**وَإِذ قَالَ مُوسَىٰ لِقَومِهِۦ يَٰقَومِ إِنَّكُم ظَلَمتُم أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلعِجلَ ... إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ**} (سورة البقرة، الآية: **49 – 52**)؛ إذ يرى صاحب "التّحرير والتّنوير" أنّ الله تبارك وتعالى خَصّ بني إسرائيل بالعديد من النّعم في زمانهم كما ذكّرهم وأنذرهم من سوء أعمالهم بالأخصّ أنّهم قد عُرفوا بكثرة الجدال والعناد[11].

وقد جاء القصص عن مجتمع بني إسرائيل في سورة البقرة متنوع الدّلالة، بين التّذكير بالنعم والحثّ على اتّباع الرّسل واجتناب الجدل، وغيرها من تعدّد الأحداث التي أحاطت بهم في ذلك الزّمن ولكن الذي يلفت انتباهنا في هذا الموضع من التّفسير، هو أنّ عنوان سورة البقرة له انسجام مع قصّة بني إسرائيل مباشرة، بينما نجد انسجاما آخر فرعيا هو ما يمكن أن نطلق عليه " الانسجام غير المباشر " لكلّ ما وقع لبني إسرائيل مع فرعون من جهة، و من جدالٍ وعنادٍ وجهلٍ كعبادة العجل من جهة أخرى، وذكر كلّ النّعم التي أنعمها عليهم ولم يحمدوها، كلّ ذلك ساهم في انسجام الآيات القرآنية فيما بينها وبين عنوانها المسمّى بالتّغريض، كون جلّ الآيات الموجودة في سورة البقرة أحالت إلى شيء واحد وموصولة بأمر واحد هو قضايا آل إسرائيل.

أمّا سورة النّساء، فعلاقة العنوان بالسورة جاء في سرّ تسمية هذه السورة بهذا الاسم كونها : " تخصّ النّساء وأنّ فيها أحكاما كثيرة من أحكام النّساء: كنعت الأزواج، والبنات وختمت بأحكام تخصّ النّساء" [12].فاسم السورة فيه دلالة مباشرة على محتواها، خاصّة فيما يتعلّق بالأحكام الفقهية للنّساء.

ولا بأس أن نمثّل لتفسيره لبعض الآيات القرآنية من سورة النساء والمنسجمة مع عنوانها أو المنسجم بدايتها مع أواخرها، ومن ذلك قوله تعالى: { **وَإِن خِفتُم أَلَّا تُقسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَاءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِن خِفتُم أَلَّا تَعدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَو مَا مَلَكَت أَيمَٰنُكُم ذَٰلِكَ أَدنَىٰ أَلَّا تَعُولُواْ** } (سورة النّساء الآية: **03**).

يذهب صاحب "التّحرير والتّنوير" في تفسيره لهذه الآية أنّها إيجاز بديع، لأنّه أُطلق لفظ اليتامى في الشّرط وقوبل بلفظ النّساء في الجزاء فعَلِمَ السّامع أنّ اليتامى هنا جمع يتيمة وهي صنف من اليتامى، ثمّ يرى أنّ بين عدم القسط في يتامى النّساء، وبين الأمر بنكاح النّساء ارتباطا لا محالة[13].

يُوَضِّح **ابن عاشور** صحّة ما ذهب إليه بحديث عروة بن الزّبير حين سأل عائشة أمّ المؤمنين عن هذه الآية فقالت: "يا ابن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليّها تشركه في ماله ويعجبه مالها وجمالها فيريد وليّها أن يتزوّجها بغير أن يقسط في صداقها فلا يعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهنّ إلّا أن يقسطوا لهنّ ويبلغوا بهنّ أعلى سنتهن في الصداق فأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النّساء غيرهن. ثمّ إنّ الناس استفتوا رسول الله بعد هذه الآية فأنزل الله قوله:{**وَيَستَفتُونَكَ فِي ٱلنِّسَاءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفتِيكُم فِيهِنَّ وَمَا يُتلَىٰ عَلَيكُم فِي ٱلكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَاءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ** }(سورة النّساء، الآية:127)"[14].

وهذا المثال فيه دفاع عن حقوق المرأة في حالة الضّعف ومنها اليتم، وذلك بالتّأكيد على التّسوية بين المرأة التي لها أب يدافع عن حقوقها، والمرأة اليتيمة التي قد يستغلّ بعض ضعاف الإيمان والمروءة حالتها الاجتماعية.

من هذا المنطلق، جاءت الآية توصي بالقسط لِمَن يرغب بالزّواج من يتامى النّساء بأن يعطيهنّ مهورهنّ ويعدل بينهنّ في حالة تعدّدهنّ، والسورة منسجم أوّلها بآخرها لأنّها خُتِمَت بطلب الإيضاح في حكم نكاح اليتامى، وذلك بقوله تعالى: " **وَيَستَفتُونَكَ فِي ٱلنِّسَاءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفتِيكُم فِيهِنَّ وَمَا يُتلَىٰ عَلَيكُم فِي ٱلكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَاءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ** " (سورة النّساء، الآية:127).

وهذا المثال الذي ذكره **ابن عاشور** غيض من فيض، لأنّه أقرّ أنّ تسمية السّورة بالنّساء منسجم مع السورة ومرتبط بها كلّيا، ويستدلّ على ذلك بتفسيره لمضمونها، إذ يذكر أنّ السورة اعتنت بذكر حقوق المرأة على زوجها من مهر، وإنفاقٍ عليها حتّى ولو كانت مطلّقة طلاقا رجعيا أو حاملا وحقّها في الميراث وغير ذلك، وبالأخصّ مكانتها في المجتمع.

ويواصل **ابن عاشور** تفسير كتاب الله تعالى رابطا تحليل السّور بأسمائها، من منطلق أنّ العنوان هو بداية أيّ عمل والذي سمّيناه سالفا من منظور الغربيين بالتّغريض، ومن ذلك أيضا سورة المجادلة، فيذكر سبب هذه التّسمية لأنّها: "افتتحت بقضية مجادلة امرأة أوس بن الصّامت لدى النبيّ عليه الصّلاة والسّلام، في شأن مظاهرة زوجها وقد قُرِئت بفتح الدّال وكسرها، أمّا بالكسر فبسبب أنّ السورة استُهِلّت بذكر التي تجادل في زوجها فحقيقة أن

تضاف إلى صاحبة الجدال، وأمّا بالفتح فهو مصدر مأخوذ من فعل تجادلك كما عُبِّر عنها بالتحاور في قوله تعالى:" **وَٱللَّهُ يَسمَعُ تَحَاوُرَكُمَا** " (سورة المجادلة، الآية:01)" [15].

وبما أنّ السور القرآنية جاءت في كثير من النصوص لتبين ما يحتاجه المسلم من أحكام فقهية فإنّنا نجد هذه السورة تسمّت باسم كان له الأثر المباشر في بيان أحكام الظّهار، وهو الوقوع في فعل الجدال.

وملاك الأمر في هذا المقام من البحث، هو أنّنا لا ينبغي أن نهمل التّناسب بين اسم السّورة ومحتواها أو كما سمّاه باحثو اللّسانيات النصّية بالتّغريض، لأنّه ذو علاقة متينة بموضوع الخطاب وهذا ما نبّه إليه صاحب "التّحرير والتّنوير" في تفسيره للسور، فبعد وصل العنوان مع السورة يتّضح لك المعنى، ويحسُنُ للكاتب صيانة تآلف العنوان مع خطابه.

ولكن ههنا سؤال لا بدّ من طـــرحه وهو: **هل يوجد سور من القرآن الكريم يغيب فيها التّغريض؟** أي هل يمكن أن نجد سورةً من سُوَرِ القرآن الكريم لا يُشير فيها اسمها إلى محتواها؟ وإن كان هذا الأمر موجوداً فعلاً فهل يمكن أن يفضي ذلك إلى خلل ما، أو يشكُلَ الأمر فيه على المفسّر أثناء دراسته القرآن الكريم فيتعذّر عليه الفهم الصحيح؟ ثمّ هل التّغريض يكون فقط في بداية الكلام أو العنوان أم إنّنا قد نجد ذلك أيضاً في متن النص أو حتى في نهايته؟

والإجابة عن هذا السؤال هي في منتهى السهولة والوضوح، وهو أنّ المفسّرين لا يقبلون على تحليل سورة قرآنية دون ربطها بالعنوان طبعا، ولكن قد لا يجد الإشارة المباشرة إلى اسم السورة في محتواها ويكون ذلك نوعا مختلفا من التّغريض وهو عن طريق الإيحاء وليس عن طريق التّصريح كما هو متعارف عليه وأصفى شاهد على ذلك هو ما ورد في سورة الإخلاص مثلا؛ إذ تخلو السورة من كلمة الإخلاص تماما في كلماتها غير أنّ المحتوى يدور حول مفهوم التّوحيد وإخلاصه لله تعالى، وبذلك تبرز أصناف للتّغريض في النص القرآني الكريم متناسقة متناغمة قويّة الدّلالة.

أمّا بالنسبة لموقع التّغريض هل يكون في أوّل الكلام دوماً أم يمكن أن نجده في وسط الكلام أو في آخره؛ أي هل نجد ما يتوافق مع اسم السورة في أولها بالضرورة أم في أيّ موضع آخر منها؟ فإنّ هذا الأمر يختلف من سورة إلى أخرى، والحالات الثلاث السابقة كلّها واردة، فقد رأينا أنّ قصّة بني إسرائيل التي أشير إليها في اسم السورة موجودة في أواسط السّورة وليس في أوّلها، ولكنّنا مع ذلك إذا تأمّلْنا مليًّا في هذه السّورة فإنّنا سنجد تلك العلاقة القائمة بين ما ورد في أوّل السورة ووسطها (قصة بني إسرائيل) وآخرها، وبين اسم السورة (البقرة)، فقصة بني إسرائيل واردة في أثناء السورة كما ذكرْنا، وقد جاءت أوائل الآيات داعية إلى الإيمان والتّقوى، وكذلك أواخرها فهل هناك علاقة بين ذلكم كلّه؟

إنّ المتأمّلَ للمعاني الواردة في المواضع السابقة من السورة سيقف على ذلك الترابط الواضح بينها؛ إذْ من علامات الإيمان والتقوى أن يلتزم الإنسان بما يؤمر به التزاماً مُطلقاً من دون أن يُناقش أسباب ذلك الالتزام أو

دواعيه أو الحكمة منه، بل ينصاع للأمر انصياعاً، وما قِصّة البقرة إلاّ شاهدٌ على ذلك، فبنو إسرائيل لم يلتزموا بأمر ذبح البقرة إلاّ بعد أخذ ورد وتردّدٍ كثير، وهو أمرٌ مُنافٍ للإيمان والتقوى كما نرى.

وفي هذا المقام أمر جلل نومئ إليه لأهمّيته، وهو أنّه لا تخلو سورة من القرآن الكريم من انسجام بداياتها مع نهاياتها ممّا يفضي إلى ترابط الآيات حتّى يستنيم القارئ إلى أنّ القرآن يأخذ من بعضه بعضا، وممّا يجري على هذا النّسق من سورة البقرة مثلا ذكر البارئ في مفتتحها تلّة من المؤمنين أنّهم يؤمنون بما أنزل إليه وما أنزل من قبله، وهذا جليّ في قوله تعالى:{ **وَٱلَّذِينَ يُؤمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبلِكَ وَبِٱلأخِرَةِ هُم يُوقِنُونَ** } (سورة البقرة، الآية: **04**)، ثمّ استتمّ الله تعالى سورة البقرة وأنهاها بما يجعل التناسب بين البدء والنّهاية جليّ، وذلك في قوله تعالى: **{ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلمُؤمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَينَ أَحَد مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُواْ سَمِعنَا وَأَطَعنَا غُفرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيكَ ٱلمَصِيرُ}** (سورة البقرة، الآية:**285**).

ونلفي في السورة نفسها تناسبا آخر بين مستهلّ النص القرآني ونهايته، إذ ذكر في بداية السورة أنّ هؤلاء المؤمنين يؤمنون بالغيب؛ وذلك في قوله تعالى:{ **ٱلَّذِينَ يُؤمِنُونَ بِٱلغَيبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقنَٰهُم يُنفِقُونَ**}(سورة البقرة، الآية: **04**) [16]، ثمّ انتهت السورة أنّ هؤلاء المؤمنين يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله، وكلّ هذا من الأمور التي لم يطلعها الله لعباده أي المتعلّقة بالغيب أضف إلى ذلك أنّ الذي يؤمن بالرّسل يؤمن بكلّ ما أخفاه الله من الأمور الغيبية.

وهذا ما يوضّح أنّ التّناسب بين مطلع السورة وآخرها قد يكون في أكثر من وجه، ولن نجد نظيرا لهذا التّناسب أو ما يسمّى بالتّغريض في اللّغات الأخرى.

4. خاتمة:

نصل في نهاية هذه الدراسة إلى أنّ **التّغريض** (**The Matisation**) من الآليات المهمّة التي يجب على محلّل الخطاب أن يظفر بدراستها بُغية توسيعه لفهم أيّ خطاب، وذلك باعتبارها من الآليات التي تفضي إلى انسجام النصوص. وهو ممارسة أدبية مشتركة بين الممارسين الأدبيين ومصطلح أكاديمي عند اللّسانيين واللّغويين يربط بين مدخل الكلام وفحواه، لا يقبل التناقض غير أنّه يمكن أن يكون صريحا أو عن طريق الإيحاء.

لم يكن تراثنا اللّغوي والنّقدي بمنأى عن استعمال هذا المفهوم والخوض فيه، ولكنّ ذلك وقع تحت مسميات أخرى لعلّ أكثرها استعمالاً عند الدّارسين والمنظّرين جميعاً هو مصطلح "**انسجام العنوان مع محتوى الخطاب**"، ولَمّا كان اشتغال أكثرهم يتّخذ من نص القرآن العظيم مدوّنةً للتطبيق فقد أكثروا من الحديث عن العلاقة الوطيدة بين اسم السّورة ومحتواها، ثمّ اتّسع ذلك ليشمل بقية النّصوص على اختلاف في درجة التوافق بين العنوان والمضمون.

تـتّضح لنا مما تقدّم تلك الأهمية التي يحوزها مصطلح **التناسب** أو **التغريض** لدى تحليل النصوص وتفسيرها ومناقشتها، ولذلك وجب الوقوف مليًّا لدى أسماء السّور وعناوين النصوص من أجل إيجاد علاقة التناسب بينهما من جهة والوقوف على مضامين النصوص وفق ما تشير إليه هذه العناوين من جهة أخرى.

وإن كان هذا من عمل النّقّاد والمحلّلين؛ فإنّ الذي يقع على عاتق أهل الإبداع من الروائيين والشعراء وفق هذا المنظور هو تخيّر العنوان المناسب الذي يؤدّي وظيفة التغريض وفق المفهوم المذكور ولا يعني هذا بحال من الأحوال أن يكون العنوان دالاً دلالة مباشرة على المضمون، فهذا أمر ربّما قد تجاوزه الزّمن والدراسات جميعا، ولكنّ العلاقة تبقى دوماً موجودة بين الطرفين بشكل من الأشكال وهو ما رأيناه في بعض سور القرآن العظيم.

5- الهوامش:

[1] - Voir. ,Brown, G .And Gorge Youle. Discourse Analysis.-1983-.CUP.London.p 133.

[2] – محمد خطابي ، لسانيات النص مدخل إلى انسجام النّص، ، الدار البيضاء، المغرب، ط2006/2، ص 59. وقد يبدو هذا التعريف من محمد خطابي غريباً بعض الشّيء، إذْ ليست كلّ البدايات ملخصة لمضامين النصوص التي تليها على وجه الإطلاق، وكان الأولى في هذا التعريف أن نضيف جزئية احترازية ضابطة له وهي أنّ هذه البداية لهذا القول تكون ملخّصة لمضمونه، وبما أنّه قد نقله عن الغربيين فإنّ هذا القصور يتعدّاه إلى الغربيين الذين نقل عنهم.

[3] – المرجع نفسه، ص59.

[4] – الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق فوزي عطوى، دار صعب – بيروت، ط 1986/1، ج1، ص 217.

[5] – أبو هلال العسكري، الصناعتين: الكتابة والشعر، تح مفيد قميحة، دار الكتب العلمية بيروت، ط1/ 1981، ص 289.

[6] –* ممّا اطّلعنا عليه في هذا الشّأن، ما وقع لعبد الملك مرتاض وهو يهمّ بتأليف كتابه: نظام الخطاب القرآني، فقد تردّد الرّجل كثيرا في الإقدام على الكتابة في الموضوع، ولكن بعد تأمّل واستخارة واستشارة وضع كتابه المذكور.ينظر: مقدّمة كتاب نظام الخطاب القرآني، تحليل سيمائي مركّب لسورة الرّحمن،عبد الملك مرتاض، دار هومه للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الجزائر/2001، وإذا كان مرتاض يفعل هذا وهو من المتأخرين ومن المنفتحين على الدراسات الغربية فما بالك بمن هو أقدم منه زمناً وأكثر محافظةً؟

[7] – الطّاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984، ج1، ص 89.

[8] – المصدر نفسه، ج 1، ص 90.

[9] – المصدر نفسه، ج 1، ص 201.

[10] – ينظر: المصدر نفسه، ج 1، ص 546 – 548.

[11] ينظر: المصدر نفسه، ج 1، ص 550 – 560.

[12] – المصدر السّابق، ج 4، ص 212.

[13] – ينظر: التّحرير والتّنوير، الطّاهر بن عاشور، ج 4، ص 223.

[14] – المصدر السّابق، ج 1، ص 223.

[15] – الطّاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير، ج 29، ص 05.

[16] – ينظر: لفاضل السامرائي، التناسب بين السور في المفتتح والخواتيم، دار ابن كثير، ص 12 –13 .